تجار جربة أثناء الحكم الفرنسي المباشر لتونس (1881 - 1956)

الهادي جلاب
المعهد الاعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة

بعد فرض السيطرة الاستعماريّة على تونس انتقلت تجارة الجملة والتوريد والتصدير الى ايدي التجار الفرنسيين في حين كانت تجارة نصف الجملة والتفصيل في ايدي التجار اليهود. فعدد التجار الفرنسيين الذي يصل الى 1354 سنة 1911 انتقل الى 5825 سنة 1936. وبالطبع فان هذا النمو في العدد والتوسع في رقم المعاملات يتم على حساب التجار المسلمين لان السماسرة الاوروبين يتمتعون بفضل نظام الامتيازات، بالعديد من التسهيلات الادارية والقانونية ولهم امكانيات كبيرة للاقتراض. وهكذا ابتعد التجار المسلمون عن التجارة الكبرى لانهم افلسوا بسبب هذه المزاحمة غير المتكافئة وتركوها لسماسرة مرسيليا وجنوة الذين التحقت بهم اقلية من اليهود "القرانة" المحميين من جانب القوى الاوروبية.

وقد تحدث عبد الجليل الزاوش عن هذه الوضعية في تقريره امام "مؤتمر شمال افريقيا " المنعقد بباريس سنة 1908 اذ قال - " *انه لمن المؤسف ان نلاحظ ان النمو الذي عرفته التجارة في تونس لم يكن لفائدة مختلف عناصر السكان. ان الاوروبين الآتون باعداد كبيرة بعد الاحتلال قد فتحوا المغازات الكبرى، ثم شيئا فشيئا تمكن اليهود بفضل فكرهم العملي (...) وبفضل التعليم الفرنسي من افتكاك مكانة مرموقة في هذا القطاع. انهم أكثر مهارة وحذق، لانهم متعلمون ولانهم ايضا يتقنون العربيّة ويعرفون بالتالي عادات الاهالي وتمكنوا بذلك من منافسة التجار الاوروبيين. وهكذا فان أغلبيّة الشركات الفرنسية والاوروبية التي لها اعمال ومصالح تجاريّة بتونس نجدها تستعمل اليهود كممثلين لمصالحها.* (1) " فالفرنسيون لم يكتفوا بالسيطرة على التجارة الخارجيّة، بل بسطوا نفوذهم كذلك على جانب كبير من التجارة الداخليّة، أي تجارة الجملة ونصف الجملة وتجارة التفصيل. هذا وعملت فرنسا على القضاء على الاواصر التجاريّة التي كانت تربط التجار التونسيين بالاسكندرية وليبيا.

لقد ساء حال التجار نتيجة اغراق السوق التونسية بالمنتوجات الفرنسية خاصّة بعد الحرب العالمية الاولى. فالواردات التونسية التي كانت سنة 1918 في حدود 207 مليون فرنك بلغت سنة 1921، 722 مليون فرنك. واحتلت البضائع المصنعة أكثر من نصف قيمة الواردات .فقد بلغت هذه المنتوجات 383 مليون فرنك سنة 1921 على مجموع 722 مليون فرنك اي نسبة 53 ./. من القيمة الجمليّة للواردات التونسية. ولم يكن التجار التونسيون، باستثناء أقلية منهم، قادرين على تعصير تجارتهم والاتجار بالبضائع المعمليّة، وذلك لعدّة أسباب أهمّها :

- شدّة منافسة التجار الاوروبيين واليهود المحليين.
- جهل هؤلاء التجار باللغة الفرنسية وباساليب العمل العصريّة
- اعتقاد عدد غير قليل من هؤلاء التجار أن التعامل مع البنوك شكل من أشكال الرّبا المحرم في الشريعة الاسلامية.

- نقص ما لهؤلاء التجار من اعتمادات ماليّة ورفض البنوك المقيمة بتونس اقراضهم-الأ في حدود ضيّقة للغاية- (2)

ونظرا لكل هذه الظروف غيرالملائمة والخانقة، ارتأى عدد غير قليل من هؤلاء التجار ان السبيل الأسلم لكسب الرزق هي التخلي عن التجارة والارتداد الى الفلاحة، او الاستثمار في الفلاحة وفي شراء العقارات الى جانب النشاط التجاري. وهكذا لم يستطع التجارالتونسيون ان يدخلوا مرحلة التركيم البدائي لرأس المال كما لم يستطع " الصناعيون" او الاعراف من الحرفيين التقليدين الانتقال الى الانتاج البضاعي الموسّع. ولم يبق متشبثا بالتجارة الأ تجار جربة وصفاقس.

لقد كان هناك شبه تقسيم تلقائي للسوق التونسيّة بين هذين الصنفين من التجار (تجار جربة وتجار صفاقس) فالوسط والجنوب يعتبران منطقة نفوذ تجار صفاقس أما الشمال التونسي فهو معقل تجار جربة.
وسنحاول في هذه الدراسة الاهتمام بالتجار الجرابة. ويتطرّق المحور الاوّل الى تجارة الجرابة من حيث تنظيمها، قواعدها، اهميتها الاقتصادية وتواجدها الجغرافي أمّا المحور الثاني فيحاول الكشف عن الدوافع والاسباب الكامنة وراء نجاح هذه التجارة وصمودها.

I - الظاهرة :

1) عدد التجار وتقسيمهم حسب الاختصاص

في دراسة اعدّها ريني ستابلو نشرت سنة 1941 (3) نجد ان العدد الجملي للتجار الجرابة سنة 1940 بلغ 444 . 6 (4) 246 يمارسون نشاطهم داخل الجزيرة و 6198 خارجها. لكن ثلث هؤلاء تقريبا هم في حالة راحة بالجزيرة وعددهم 2251 أما البقية فنجد منهم 548 يعملون خارج البلاد التونسيّة و 3399 موزعين بالايالة حسب الاختصاص على النحو التالي :

الاختصاص التجاري	العدد	النسبة
تجارة التفصيل مع /أو بدون منسوجات	2757	81
منسوجات وأقمشة	297	8
الفخار	68	2
نساجون	123	3,6
اصحاب مطاعم او مقاهي	26	0,8
انشطة تجارية مختلفة	128	4,6
الجملة	3399	100

نلاحظ من خلال هذا الجدول ان 4/5 من التجار الجرابة مختصون في تجارة المواد الغذائية التفصيلية. لكن ما هي المناطق التي يهاجر اليها هؤلاء ويمارسون فيها نشاطهم ؟

2) التمركز الجغرافـــــــــي

يمارس التجار الجرابة نشاطهم بالاضافة الى الايالة التونسيّة في الحوض الجنوبي والشرقي للبحر الابيض المتوسط من الاطلسي الى البوسفور. ويتوزع هؤلاء جغرافيا كما يلي :

مناطق الهجرة	العـــدد	النسبـة
البلاد التونسيّة	5365	86,5
الجزائر	679	11
ليبيا	76	1,2
مصر وتركيا	71	1,2
المغرب الاقصي	7	0,1
المجموع	6198	100

أمّا بالنسبة للبلاد التونسيّة فنلاحظ من خلال الارقام تواجدا هامّا بمناطق الشمال وقد حاولنا أن نثبّت ذلك على الخريطة الموالية :

الشمال
المناطق التي
يتمركز بها التجار
الجوابة
0 45 90كلم

ويقسم التجار الجرابة (بدون احتساب من هم في فترة راحة وعددهم 2497 حسب جهات البلاد ،كما يلي :

الجهة	العدد	النسبة
تونس ونابل وزغوان	2309	67,3
بنزرت	677	20
الكاف	195	5,8
سوسة	73	2,1
جهة صفاقس وقابس	67	2
الجنوب الشرقي	78	2,2

أمّا في خصوص توزيع هؤلاء التجار حسب المدن فان مدينة تونس واحوازها تحتل الصدارة ب 2229 تاجر ثم تأتي ماطر ب 233 وباجة 115 وسوق الاربعاء 90 وبنزرت 82 وفيريفيل 82 وصفاقس 55 وسوق الخميس 54 ... الخ.

ان ما يمكن ملاحظته في خصوص هذا التمركز الجغرافي، هو التواجد بأغلب

مناطق الشمال ،وحيث الكثافة السكانية وهذا من طبيعة الاشياء بالنسبة للنشاط التجاري الذي يتطلب مستهلكين وتعاملا بالنقد لا يتوفران إلاّ في التجمعات السكانية الهامّة. لكن كيف تنظّم هذه التجارة؟ وما هي قواعدها ؟

3) تنظيم تجارة الجرابة وقواعدها

التجارة عند الجرابة هي مؤسسة ذات صبغة عائليّة بحته، ففي اغلب الاحيان يرتبط صاحب المتجر ومساعدوه بصلة قرابة وهذا من العوامل التي تخفّض من المصاريف وترفع بالتالي من المرابيح. ان بنية تجارة الجرابة تقوم في الغالب على طرفين أو ثلاثة أطراف :

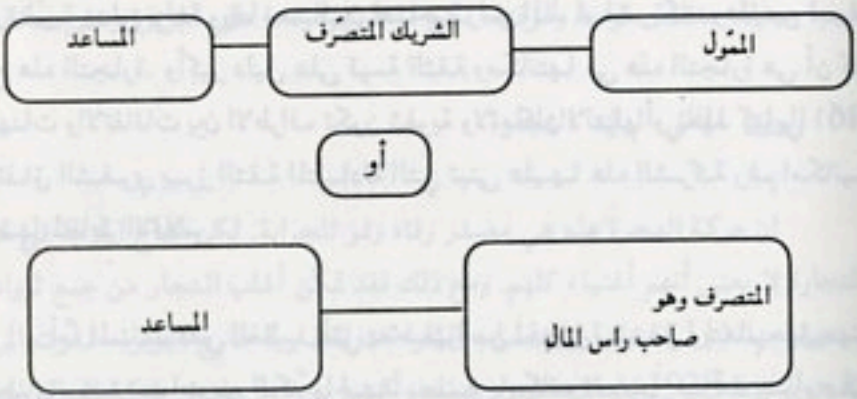

فالممول يكون عادة تاجرا هو الآخر لكن في وضع مالي أفضل من الشريك. والشريك يقوم بعدّة ادوار في نفس الوقت فهو المتصرّف و "مدير" المتجر ويأخذ نصيبه من المرابيح و يساهم في دفع الخسائر، حسب نسبة يتفق عليها مسبّقا .وهو لا يساهم لا بالمعدات ولا براس المال ولا بالبضائع، ومصاريفه العاديّة اليوميّة (وهي قليلة) تؤخذ

من مداخيل المتجر، تماما مثل معلوم الكراء والاضاءة والضرائب، وعادة يسكن مع مساعده بالمتجر (5).

ويخضع العمل داخل متجر الجربي الى نظام صارم وانضباط حديدي، فالعمل يمكن أن يتواصل أكثر من 15 ساعة في اليوم، من الصباح الباكر الى الساعات الاولى من الليل، بدون انقطاع ولا راحة تذكر، فتناول الطعام يكون في المتجر وكذلك الصلاة.

ويتكفل صاحب راس المال بمدّ المتجر بالسلع خاصّة اذا كان بدوره من تجار الجملة أو نصف الجملة، ولا يعتمد التصرّف عند الجرابة، خاصة تجار التفصيل، وهم الأغلبية، على حسابات مضبوطة، فالعملية سهلة بالنسبة للجربي، فهو يعتمد على ذاكرة قوية وعلى نزاهة ووفاء مثاليين لصاحب رأس المال أو لشريكه ،وهذا من أسرار نجاح هذه التجارة. وأكبر دليل على قيمة الثقة ومكانتها في هذه التجارة هي أن كل التعهدات والاتفاقات بين الاطراف تكون شفوية ولا مكان لالتزام أو تعهد كتابي (6). والاتفاق الشفوي يبرز الثقة المتبادلة التي تبنى عليها هذه الشركة رغم امكانية تعرضها لمخاطر الافلاس.

أمّا المساعد ففي الغالب يأتي به صغيرا من الجزيرة ليشتغل ويتعلم حذق مهنة التجارة وبعد سنوات من الكدّ والجهد يصبح بامكانه تقاضي مرتّب يتراوح في الثلاثينات بين 40 و 50 فرنك شهريا (7). وهو أجر زهيد اذا ما عرفنا أن في سنة 1935 كانت "أدنى تعريفة" الترامواي تصل الى 1،35 فرنك (8)، أي أن من يمتطي الترامواي مرّتين في اليوم عليه توفير 40،5 فرنك شهريا للنقل فقط. ومع ذلك فهؤلاء الصبية هم احدى أسس هذه التجارة والمواصل الحقيقي لهذا النشاط.

ويقضي تنظيم النشاط التجاري لدى الجرابة القيام بعملية الابدال أو

التعويض مرة كل سنة أو سنتين أو أكثر حسب ظروف التاجر أو ضرورات العمل أو مكان الهجرة. فالبقاء في الهجرة في مناطق تونس والجزائر وطرابلس وبنغازي يدوم بين سنة وسنة ونصف. أما في المناطق البعيدة مثل المغرب الاقصى أو مصر أو تركيا فيمكن أن يدوم أكثر (9). وتوفّر عمليّة التغيير فرصة للقيام بالجرد ومعرفة وضع المتجر المالي وحجم المرابيح أو الخسائر.

وتمكّن عملية الابدال أو التغيير من تجديد أفراد الجالية الجربية بصفة دورية، وتدوم فترة الراحة بالجزيرة من ستّة أشهر الى سنة فأكثر، والذي يدخل في عطلة يعوضه أخ أو ابن عمّ أو قريب، وان لم يكن من نفس العائلة فهو من نفس القرية (10). وفي الحقيقة فالجربي الذي يعود للجزيرة لا يتوقف عن النشاط بل يشتغل في الفلاحة ويهتّم بعائلته ومنزله، وعائلة ومنزل من يعوضه في الهجرة.ان هجرة الجرابة هجرة مهنية، منظمّة، فردية ومؤقتة، لكن ما هو مردودها على الجزيرة وعلى سكانها ؟

4) الوزن المالي لهذه التجارة

ان حركة الهجرة هذه هي مصدر رفاه ونمو للجرابة. لكن نجاح الجرابة في مجال التجارة لا يعني أنهم أغنياء كلهم. ومع ذلك فقد تمكّن أغلب التجار من جمع ثروات لا يستهان بها (11) . وبدون احتساب الشراءات العقارية خارج الجزيرة، قدّرت المرابيح السنويّة سنة 1938 بنصف مليون فرنك وأكثر من 13 مليون حركة المبالغ المحوّلة للجزيرة أو من الجزيرة عن طريق البريد يضاف اليها مبلغا مساويا يمثل عمليات القرض المحلي الجارية (12).

ومنذ بداية القرن العشرين تعاظم شأن التجار الجرابة حيث كانت أغلب الشركات التجارية التونسية الفتيّة تنتدب منخرطيها من ضمنهم، مثل شركة "الاتحاد التجاري" التي تأسست سنة 1907 برأس مال بلغ 200 ألف فرنك ثم ارتفع قبل

الحرب العالمية الاولى الى 400 ألف فرنك (13). وتمكن الجرابة بفضل الثروات التي بدأت تتكوّن لديهم من شراء عقارات عديدة خاصة بالعاصمة. كما فكّر بعضهم في تأسيس بنك في الثلاثينات (14)، وفي الاربعينات (15). لكن السلطات الاستعماريّة أجهضت المشروعين.

لقد رأينا في هذا المحور أنّ عدد التجار الجرابة يفوق عدد التجار الفرنسيين (6198 جربي مقابل 5825 فرنسي في الثلاثينيات) وأنهم تمكّنوا بفضل حسن تنظيمهم وتضامنهم من اقامة شبكة تجارية تلعب دور الوسيط بين السوق الرأسماليّة والمجتمع الاهلي.ولنا أن نسأل ما هي القوى التي تدفع الجرابة نحو هذا النجاح وتجعل منهم أمهر التجار ؟ ما هي الاسباب والعوامل التي تقف وراء هذا النّجاح وهذا التطوّر ؟ هل هي مرتبطة بمعطيات التاريخ والجغرافيا، أم تعود لدوافع دينية ومذهبيّة ؟.

II - أسباب هذا النجاح ودوافعه

1) التاريخ والجغرافيا والاستفادة من علاقات الانتاج الرأسمالية

لعبت جربة "جزيرة الصوف والزيت" (16) دورا هامًا في تجارة المتوسط وكانت لها علاقات متواصلة مع طرابلس والشرق العربي واسطنبول (17)، اضافة الى كونها كانت في القديم جزءا من شبكة مبادلات عدّة بلدان متوسطيّة مثل البندقية (18). اما بالنسبة لتونس فالجزيرة كانت لازمة لتجارتها الشرقية، لموقعها الجغرافي، ولان منتوجاتها الصناعيّة كانت رائجة في البلاد الشرقية، مصر وتركيا بصفة خاصّة.فالسفن الصفاقسية وغيرها من السفن التونسيّة كانت تمر من جربة حيث تتزود بالمنسوجات الصوفية، والشيلان، والزيوت والشمع والعسل والعبيد السمر، وزيادة عن كلّ ذلك اصبح التجار الجرابة العنصر الاساسي في تجارة الايالة التونسية مع بلاد الترك وهمزة الوصل بين التجار المقيمين هنا وهناك. فقد كان التجار الجرابة في نطاق شركات

مقارضة او نصفيّة للقيام بعمليات تجارية في قلب الامبراطوريّة العثمانية، في اسطنبول وازمير خاصّة حيث تقيم منذ القرن السادس عشر جالية من اهل جربة تمتاز باستقرارها وحيويتها الاقتصاديّة (19).

وفي القرن التاسع عشر كان لجربة ربط تجاري مع مرسيليا ونابولي وانقلترا وسردانيا، وكان لهذه البلدان والمدن تمثيل قنصلي بالجزيرة (20).وبعد بسط النفوذ الفرنسي على تونس عام 1881 فكرت سلطات الحماية في تحويلها الى ميناء للتجارة مع افريقيا جنوب الصحراء وبلدان التشاد ومالي (21).

وكما حاولت فرنسا الاستفادة من الجزيرة فان الجرابة بدورهم حاولوا الاستفادة من "السلم الفرنسية" وعلاقات الانتاج الرأسمالية التي بدأت تتوسّع، وتمكّنوا من ذلك بفضل مهارتهم وضغطهم على المصاريف. فعلاقاتهم بالسوق وبعلاقات الانتاج الرأسمالية ينطبق عليها المثل الشعبي " داخلين في الربح خارجين في الخسارة ".

وقد برز ذلك في الفائض التجاري الذي سجلته الجزيرة بين 1885 و 1910 والذي بلغ752،176 2 فرنك، فقد صدّرت بما قيمته 963،898 . 19فرنك ووردّت بماقيمته 211 722 17 فرنك (22). لكن هذه الاستفادة برزت بصفة خاصة في الاعتماد على "السلم الفرنسية" التي حمت الجرابة الاباضية من تجاوزات بقية بني وطنهم وهم من المسلمين المالكيين وحمت كل التجار الجرابة من تقلّبات ومحن القرن التاسع عشر.وتمكّنوا بسرعة من استيعاب تقنيات وأساليب التجارة العصرية مع المحافظة على تراثهم وتقاليهم.

فمنذ انتصاب الحماية وبعد تقهقر الحرف وتراجع القطاع الفلاحي وارتفاع الاعباء الجبائية المسلطة على الجزيرة (23)، تأكد الجرابة من ان الحل هو في توسيع نظام الهجرة والاعتماد بصفة متزايدة على النشاط التجاري. وتمكنوا بالفعل من اقتحام السوق الرأسمالية والقيام بدور الوسيط بينها وبين المجتمع الاهلي مع استعمال وسائل

عمل وعلاقات تقليدية والمحافظة على نمط عيش "عتيق" الشيء الذي يخفض من المصاريف ويرفع من قيمة المرابيح (24). ففي حين كان المواطن الذي يمتطي الترامواي في أواسط الثلاثينات يحتاج الى أكثرمن 40 فرنك شهريا كان مساعد التاجر الجربي يتقاضى مرتبا لا يفوق 50 فرنك شهريا. مع العلم ان هذا الاخير لا يصبح بامكانه الحصول على هذا المرتب الأ بعد سنين من الكدّ والجهد.

لكن ما هي الدوافع الخفيّة التي تجعل من الجربي عاملا مجتهدا، صابرا ووفيا وبالتالي تاجرا ماهرا وناجحا ؟ أليس لاعتناق معظم سكان الجزيرة للمذهب الاباضي طيلة قرون عديدة دور في ذلك ؟

2) الجرابة والمذهب الاباضي : هل هم بروتستان المسلمين ؟

تتفق المصادر على ان جربة فتحت سنة 47 هجري (667 - 668 م) على يد الصحابي رويفع بن ثابت الانصاري زمن معاوية ابن ابي سفيان (41 - 60 هجري). وأصبحت اباضيّة بعد قيام دولة تعتنق نفس المذهب بطرابلس من 127هـ الى 149هـ. فما هو هذا المذهب وكيف تواصل في جربة ؟

الأباضيّة فرقة من الفرق الاسلامية يعدها جّل المؤرخين احدى فرق الخوارج (من امثال ابن خلدون والطبري) غير ان مؤرّخيها يتبرّؤون من هذه النسبة (من امثال الشيخ عبد الله السالمي في كتابة " مقدمة تحفة الاعيان " وابراهيم محمد عبد الباقي في كتابه "الدين والعلم الحديث"). ترجع جذور هذه الفرقة الى اجتماع النهروان سنة 38 هـ 658 - 659 م بعد قبول الخليفة علي التحكيم، اذا اعتبر هؤلاء ان لا حكم الأ لله وبايعوا عبد الله ابن وهب الراسبي. فطاردهم علي ثم الامويون بعده في كل مكان. سميت بهذا الاسم نسبة الى امامها السياسي عبد الله بن أباض، وفاته سنة 88هـ 705م (حسب كتاب الاعلام للزركلي الجزء السادس ص 184 - 186) .وكان جلّ

نشاطهم بمكّة والمدينة والبصرة والكوفة واليمن وحضرموت وعمان (25) وانتقل المذهب الى بلاد المغرب وهناك عاملان ساعدا على ذلك : مطاردة الامويين اياهم في المشرق، اضطهاد امراء بني اميّة البربر في المغرب.لكن بعد ان دخلت الاباضية الى جربة كيف استطاعت ان تحافظ على كيانها طيلة قرون من الزمن ؟

انتهت الامامة الاباضية في ليبيا بتغلب دولة بني العباس عليهم بقيادة الاغالبة في واقعة مانو 283 هـ 896 - 897م وفي الجزائر بتغلب الشيعة عليهم سنة 296هـ 908 - 909م. وبعد هذه الهزائم شعر الاباضيّة بجبل نفوسة واريغ ووارجلان وجربة أن لا قوّة لهم لتكوين امامة ظهور. وان الحلّ يكن في الكتمان وبدأ شيوخ الاباضية في تكوين نظام يتماشي والكتمان يحفظ كيانهم ويجمع شملهم دون ان يتعرّضوا لشر السلطان الذي اصبح يخشى توارائهم ويحاول تشريدهم، هذا النظام سيلقب "بنظام العزابة" (26) فما هي حقيقة هذا النّظام ؟

استعمل فعل عزب في الاصل لمي يبعد بغنمه في البوادي من اجل المرعى، ثم اطلق على الرجل الذي يتغيب عن اهله في ماله، وعلى من لا زوجة له. واستعمل في القرآن مرّتين بمعنى الغياب :

" وما يعزب عن ربّك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء"

سورة يونس الآية 61

"ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض"

سورة سبأ الآية 3

هكذا نلاحظ ان مادة عزب تدل على معنى البعد من اجل الدنيا، امّا لرعاية الأغنام أو في طلب المال، وكذلك معنى الغياب ويقول أحمد ابن سعيد الدرجيني (ق 7هـ 13م) في كتاب "الطبقات" الجزء الأول ص 3 "العزابة واحدهم عزابي، وهذه اللفظة استعملت لقبا لكل من لازم الطريق، وطلب العلم وسير اهل الخير وحافظ عليها وعمل

بها فان حصّل جميع هذه الصفات سمي عزابيا". (27) فنلاحظ حينئذ انها اخذت من معنى البعد، الاّ أنه بعد عن شهوات الدنيا وكمالياتها. كما يقول ابو حيان التوحيدي في شأن الخليل بن احمد :

*عزوبا عن الدنيا وعن زهراتها *** وشوقا الى المولى وما واعـــده*

وهذا الانقطاع عن الدنيا ليس كاعتزال الصوفية والطرقيين، وانما هو ان لا يجعل للدنيا قيمة كبرى، اقبلت او أدبرت، على ان لا ينسى نصيبه منها، وهو أيضا من اجل التفاني في خدمة المسلمين وحفظ دينهم. والعزابة هم جماعة ينتخبون من اهل الورع والصلاح والتفقه في الدين والامانة والصدق يتولون الامر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد واللسان ويقومون بجميع الوظائف الدينية والدنيويّة، لحفظ المجتمع الاباضي مما عسى ان يدخله من بدع لا تتماشى مع مذهبهم (28).

لقد ظلّت الجزيرة بأكملها تعتنق المذهب الاباضي حتى القرن السابع عشر، ثم بعد زوال نظام العزابة واندثاره تحوّل القسم الشرقي والجنوبي الشرقي للجزيرة الى اعتناق المذهب المالكي السنّي في حين حافظ الجزء الغربي والشمالي الغربي على المذهب الاباضي. لكن بصفة عامّة حافظ الجرابة على سمات مشتركة تعود الى اصولهم العقائديّة والعرقيّة التي وحّدت الجزيرة طيلة 7 قرون.

ان ما يهمنا في المذهب الاباضي ومخلّفات "نظام العزابة" هو ذلك التأكيد على التزهد والعمل والمسعى المتواصلين. فهذه المبادىء والقواعد بقيت تقود سلوك الجربي في الفترة المعاصرة . ذلك ان مكونات البنية الفوقية من ثقافة وافكار وسلوك تصمد امام التحوّلات وتبقى مخلفاتها حتى بعد زوال الوضع الذي افرزها. ولنا ان نتساءل ألا يكمن هنا سرّ صبر الجربي على ظروف هجرته الصعبة داخل دكانه بعيدا عن بلاده، وانضباطه في العمل، ونزاهته وأمانته ؟وألا يكمن هنا أيضا سرّ نجاح الجربي في هذا النشاط وتمكّنه من جمع ثروات هامّة ؟

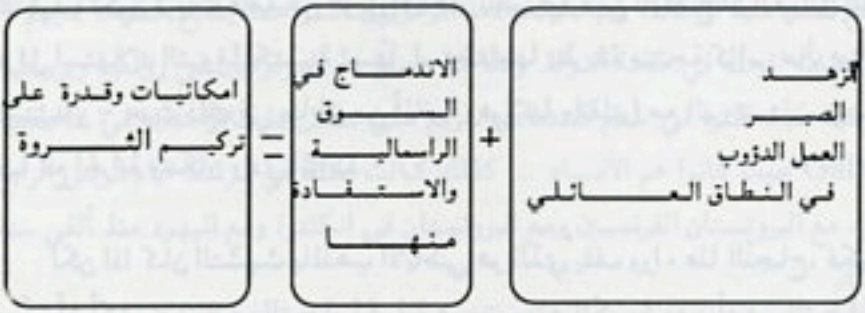

وهنا نجد انفسنا ام النظريّة الفيبريّة ماكس فيبر التي تقول ان علاقة ما تربط الاخلاق والسلوك الدينيين بالنجاعة الاقتصادية وذلك اعتمادا على التجربة البروتستانية. فهل نقول ان الجرابة هم "بروتستان" المسلمين ؟

في الحقيقة هناك تشابه ملفت للنّظر بين الجرابة وكذلك سكان وادي المزاب بالجزائر من ناحية وبين بعض الطوائف البروتستانية مثل الكالفينية من ناحية اخرى (29). فالاخلاق البروتستانيّة تطرح فكرة ان الحياة المهنية ينبغي ان تشكل، بالنسبة الى الفرد، تمرينا على فضيلة التقشف واختبارا، من خلال دور الضمير، في المهنة والخلاص. وتتعارض البروتستانيّة،التي تمارس تأثيرا في الحياة الدنيا، تعارضا حاداً مع التمتع العفوي بالثروات، وتكبح الاستهلاك لا سيما في مجال الاشياء الكماليّة (30). أمّا لدى الاباضيّة في جربة ووادي المزاب فإن تضامنهم "يقودهم إلى اضفاء حرمة كبرى على مشائخهم، خبراء الشريعة الذين يدققون في مراقبة خلق رعيتهم وتشف عاداتها وطهرها، وفي ذلك ضمانة ألاّ ينصرف الاباضيون الى الكسل واللهو وتبديد المال في الكماليات" (31)

وفي الحالتين عند اجتماع مثل هذا الكابح للاستهلاك مع مثل هذا السعي

وراء الربح (الذي يتيحه تقديس العمل والتفاني فيه) فان النتيجة العمليّة هي بالتأكيد، تكوّن ثروات هامّة عن طريق الادّخار القسري. فمن الواضح ان العوائق التي تعرقل استهلاك الثروة المكتسبة تسهّل استخدامها بطريقة منتجة كراس مال صالح للاستثمار - حدث ذلك في مناطق من ألمانيا وهولاندا وانقلترا مع البروتستان، وحدث ايضا مع الجرابة وسكان وادي المزاب.

لكن اذا كان التشبث بالمذهب الاباضي هو الذي يقف وراء هذا النّجاح، فكيف نفسّر أن أكثر من نصف التجار الجرابة هم سنيون مالكيون ومن أمهر التجار ؟ (32)وحتى وان سلمنا بان مخلفات المذهب الاباضي مازالت تفعل فعلها لدى الجزء المالكي من الجزيرة بالاضافة الى الجزء الذي ظلّ أباضيا فان الاباضيين في الحقيقة " لا يختلفون في عقيدتهم الدينية اي اختلاف جوهري عن الاسلام بصورة عامّة حول أية نقطة تصلح لان تكون تفسيرا لنشاطهم الراسمالي النموذجي. ويمكن للمرء ان يتأكد من ذلك بان يقرأ مثلا قصيدة للاستذكار [من طراز ألفية ابن مالك] نشرها المستشرق "ز-سموغورزيوسمكي" حول الفروق بين الاباضيّة والمالكيّة، التي هي مذهب الاكثريّة الكبرى من سكان الشمال الافريقي. فموقف الاباضيّة مثلا من القضاء والقدر لا يختلف عن موقف عامّة المسلمين.

ولئن كانوا من وجهة النّظر الدينيّة، على الصعيد الاقتصادي يمارسون الرّبا، فهم يستخدمون فيه نفس "الحيل" الشائعة في المذاهب الاسلاميّة الاخرى. وهذا يعني اننا لا نستطيع ان نعثر على سرّ حيويتهم الاقتصادية الاستثنائية الاّ في كونهم اقليّة عقائديّة، وفي حرصهم على خصائصهم المميزة، المستندة الى تلاحم بالغ القوّة (33)." هذا التلاحم والنجاح تختص به الاقليات العقائدية ونجده لدى شيع اخرى مسلمة، كالاسماعليين كما نجده في اديان أخرى لذلك الح بعض علماء الاجتماع على دور ما يسمى "بالاقليات المبدعة".

ان الاقليات القوميّة او الدينية، التي تجد نفسها في حالة المسيطر عليها،

الهوامش

(1) حول اوضاع التجار والصناعيين التونسيين خلال الفترة الاستعمارية انظر اطروحتنا "مقدمة لدراسة الاوضاع المادية للعناصر البورجوازية التونسية الكبيرة (1920 – 1956) – كليّة الآداب والعلوم الانسانية 1990 ، (مرقونة) .

(2) الهادي التيمومي : نقابات الاعراف التونسيين (1932 – 1955)، دار محمد علي الحامي، صفاقس ، 1983، ص 142.

(3) STABLO (R) : *Les Djerbiens, une communauté arabo-berbère dans une île de l'Afrique française* Tunis 1941, p. 91

نلاحظ ان ستابلو شغل خطّة مراقب مدني بالجزيرة لمدّة 4 سنوات وذلك في الثلاثينات.

(4) نشير الى ان عدد التجار الفرنسين كان سنة 1936 في حدود 5825 .

(5) المصدر المذكور سابقا، ص 92 – 93 .

Guy (Ermeneux): Quelques aspects de Djerba, in *Bulletin économique et social*, n. (o) 59, décembre 1951.

(7) المصدر المذكور سابقا، ص 83.

(8) Fonds de la Résidence. Carton 2057 (B), Dossier 1, Bobine : R. 337

(9) TLATLI (S.E) : *Djerba et les Djerbiens, monographie*, Tunis, 1942, p199 .

(10) MARTY (G) : A Tunis: éléments allogènes et activités professionnelles, in *IBLA*, 1948

(11) المرجع المذكور سابقا – ص 201 .

(12) المرجع المذكور سابقا ص 108 .

(13) محمد الصالح (مزالي) : تطور تونس الاقتصادي (1881 – 1920) نقله الى العربيّة الهادي التيمومي، نشر بيت الحكمة، تونس، 1990، ص 93 – 94 .

(14) الهادي التيمومي : نقابات الاعراف التونسيين (1932 – 1955) دار محمد الحامي، صفاقس ، 1983، ص 194 و 195 .

(15) كان سليمان بن يوسف وهو أصيل جربة من المشاركين في مشروع الثلاثينات، وفي سنة 1943 من المهتمين بمشروع انشاء "بنك تونس الشعبي" بفضل الاعتماد على المساعدة الامريكية الى جانب محمد شنيق وصالح فرحات ومحمد علي العنابي وعزيز الجلولي. لكن المشروع لم ير النور بسبب عودة السيطرة الفرنسية المطلقة على تونس بعد انتهاء الحرب. ولكن الجرابة سيتشبثون بهذا الطموح وسيتمكنون من انشاء بنك بعد الاستقلال وهو "المصرف العقاري والتجاري التونسي" (أنظر أطروحتنا" مقدمة لدراسة ... المرجع المذكور سابقا).

(16) BRAUDEL (Fernand) : *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de philippe II* Paris, 2 edition, 1966, tome II, p. 28.

(17) SAINTE MARIE (A) : Considérations sur l'importance stratégique de jerba entre

1881 et 1918 - in Actes du Colloque sur l'histoire de Jerba (Avril 1982), Publication de l'INAA, TUNIS, 1986

(18) DOUMERC (B) : Les relations commerciales entre Jerba et la république deVenise à la fin du moyen âge. in Actes du Colloque sur l'histoire de Jerba (Avril 1982). Publication de l'INAA, TUNIS, 1986

(19) الزواري (علي): وثيقتان عن تجارة جربة وصفاقس مع الشرق اعمال الملتقى حول تاريخ جربة، افريل 1982.

(20) PELLISSIER (E) : *Description de la regence de Tunis*, 2 édition, TUNIS 1980, P. 175.

(21) EL ANNABI (Hassen) : "JERBA, BOUGRARA et la Question du Commerce trans-sahairen à la fin du XIX siècle". in Actes du Colloque sur l'histoire de Jerba (Avril 1982). Publication de l'INAA, 1986.

(22) MARTEL (A) : "Le commerce maritime du Sud tunisien 1885-1910". in *Cahiers de Les Tunisie*, n 47-48, 1964

(23) BEN HAMIDA (Abdessalem) : "La situation économique et sociale a Djerba pendant le premier quart de siècle du protectorat (1881-1906),d'après trois rapports du capitaine HARTMAYER". in *Actes du colloque sur l'histoire de Jerba* (Avril 1982). Publication de l'INAA, 1986.

(24) الهادي جلاب : مقدمة لدراسة .. المرجع المذكور سابقا ص 203 .

(25) فرحات الجعبيري : *نظام العزابة عند الاباضية الوهبيّة في جربة*، نشر المعهد القومي للآثار والفنون، تونس، 1975، ص 18.

(26) المرجع ذاته ص 25.

(27) المرجع ذاته ص 63.

(28) المرجع ذاته، ص 65.

(29) FREUND(W) : Les Djerbiens en Tunisie, réminiscence d'un sociologue allemand devant une recherche inachevée. in *IBLA*, 1986, T 49, N 157, pp 31-57

(30) ماكس فيبر : *الاخلاق البروتستانتيّة وروح الراسمالية*. ترجمة محمد علي مقلد، مركزالانماء القومي، بيروت، ص 149.

(31) مكسيم رودنسون : *الاسلام والرأسماليّة*. ترجمة نزيه الحكيم،دار الطليعة، بيروت، الطبعة الرابعة 1982، ص 114.

(32) العدد الجملي للتجار الجراية كان سنة 1940، 6444 منهم 3729مالكيين (58 ٪) و 2715 اباضيين (42 ٪)

(33) مكسيم رودنسون : *الاسلام* ـ المرجع المذكور سابقا، ص 113.

(34) ماكس فيبر : *الاخلاق البروتستانتية* ... المرجع المذكور سابقا، ص 18.

(35) فرحات الجعبيري : *نظام العزابة* .. المرجع المذكور سابقا، ص 309.